الطفل والفن

أ.د. صفاء الأعسر
أستاذ بكلية البنات – جامعة عين شمس – مصر
مستشارة ملف العدد

نستكمل في هذا العدد ما بدأناه في العدد السابق حول الفن والطفل ؛ حيث يتضمن هذا العدد سبع مقالات، تدعم سابقتها، وتضيف إليها . وهي بهذا تتواصل مع الاهتمام العالمي بالطفل والفن . وهذا ما يدعونا أن نستهل هذه المقدمة ببعض التجارب العالمية التي تدعم الأفكار الرئيسية التي وردت بتلك المقالات ، ونقصد بها "أن الفن ينمي المخ البشري" .

ولأن المخ البشري هو مركز النشاط الإنساني، سواء كان هذا النشاط حسياً، أو عقلياً، أو وجدانياً، أو اجتماعياً ، فإننا نستطيع أن نقول إن الفن له تأثير على النشاط الإنساني . من هذه الفكرة الرئيسية نعرض باختصار ووضوح بعض التجارب العالمية .

نبدأ بالمخ البشري مركز الحياة ومركز النشاط الإنساني ، وهو مقسم إلى مناطق (للتبسيط) لكل منها وظائف محددة ، ولكن مع هذا التخصيص فإن بين هذه المناطق اتصالاً وتفاعلاً وتكاملاً ، فالمخ عضو واحد ، ولأنه عضو في الجسم ؛ فإن هناك عوامل تساعده على النمو ، فينطلق ويحقق مستويات عليا ، وهناك عوامل تعوق نموه ، فيتراجع، ويظل في مستوى نشاط مُتدنٍ.

وما يهمنا هنا هو كيف يساعد الفن على تنمية المخ . وسوف نقتصر في عرضنا على الموسيقى (وإن كانت البحوث تغطي مجالات الفن المختلفة). حين يسمع الطفل الموسيقى تنشط وظائف المخ المتصلة بالسمع والإيقاع والوزن وغيرها من العديد من الوظائف ، ولأنها تنشط في الوقت نفسه، فإنها تتفاعل فيما بينها، فتقوي الاتصالات فيما بينها .

نتوقف هنا لنلخص أن الموسيقى تنشط المخ، وتقوي الاتصال فيما بين مناطقه المختلفة، وهو ما يعتبر نمواً في وظائف المخ . وهنا نتساءل : هل المناطق المسئولة عن الموسيقى غير مسئولة عن أي وظائف أخرى ، ومن ثم فالاستماع للموسيقى يقوي من قدرة الطفل على الاستماع لمزيد من الموسيقى ؟ الإجابة بالنفي؛ لأن المناطق المسئولة عن الموسيقى مسئولة أيضاً عن وظائف أخرى ، ومن ثم فحين تقوى، تنعكس القوة على النشاط الموسيقي وغيره من الأنشطة .

وقد وظف أحد الباحثين هذه القاعدة ، حين صمم تجارب على أثر الموسيقى على تعلم الحساب ؛ حيث إن الحساب والموسيقى يشتركان في أنهما يتطلبان عمليات عقلية تقوم بها مناطق واحدة في المخ ، وبذلك حين تقوى الموسيقى وظائف تلك المناطق ، تنعكس هذه القوة على تقدم الأطفال في الحساب ، وهذا ما توصل إليه الباحث فعلاً ؛ حيث درب ٢٩ طفلاً على العزف على البيانو ، وقارن بينهم وبين ٢٩ طفلاً لم يتدربوا ، وكانت النتيجة تقدم المجموعة الأولى في الحساب . وتؤكد البحوث هذه النتيجة عند المقارنة بين تلاميذ اليابان وسنغافورة وتايوان من ناحية والتلاميذ الأمريكيين من ناحية أخرى في الرياضيات والحساب ، حيث تحتل الدول الآسيوية المراكز الأولى ، وتقع أمريكا في المراكز المتأخرة ، ويفسر الباحثون ذلك أن الدول الآسيوية تضع المقررات الموسيقية نظرياً وعملياً في نفس مستوى المقررات المدرسية الأخرى ، فيحصل التلميذ على حصيلة موسيقية ضخمة منذ التحاقه بالمدرسة ، وذلك لا يعني أن الموسيقى هي المسئول الأوحد، ولكنها أحد العوامل الأساسية في النمو العقلي للتلاميذ الآسيويين.

ولا يقتصر تأثير الموسيقى على الحساب فقط ، فقد قام أحد الباحثين بتجربة على مجموعة من الأطفال في الرابعة من العمر ، وكان يقدم لهم الموسيقى لمدة ساعة يومياً ، أو خمس أيام في الأسبوع . ثم قام بعمل فحص لمخ هؤلاء الأطفال ومقارنتهم بمجموعة مماثلة لم تشترك في التجربة ، واستخدم في الفحص الرسام الكهربائي للمخ ، وأشارت النتائج إلى اختلاف وظائف المخ من حيث النشاط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والترابط بين المناطق المختلفة لدى المجموعتين؛ حيث تفوقت مجموعة الموسيقى على المجموعة الأخرى .

ولا يسعنا المجال لسرد المزيد من التجارب التي تؤكد العلاقة بين الموسيقى ونشاط المخ ، وتكامل وظائفه ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل أثر الموسيقي على الجهاز المناعي وعلى خفض التوتر ، وانتظام عمل القلب ، ذلك أن الجسم الإنساني تصدر عنه ذبذبات نتيجة لما يصدر عن المخ من ذبذبات ، وقد خلق الله البشر ووضع فيهم حاسة السمع كأقوى الحواس. فإذا ما استمع الطفل إلى الموسيقى، تحولت الموسيقى عن طريق العصب السمعي إلى ذبذبات تصل إلى المخ. ومن حكمة الخالق أن يجعل الاتصال بين العضو السمعي ومناطق المخ المختلفة علاقة قوية ومباشرة ، فتنتقل تلك الذبذبات إلى مناطق المخ المختلفة جالبة معها البهجة والتوازن . ولا نريد أن ندخل في مزيد من التفاصيل عن إفراز هرمونات إيجابية في المخ، ولكن يكفينا أن نعرف أن تلك الذبذبات تنشط المناعة، وتنشط إيقاع القلب وإيقاع المناطق المسئولة عن التوتر في المخ ، فتخفف التوتر وتدعم الشعور بالبهجة والانشراح . وهذا ما نعبر عنه بلغتنا الدارجة بصفات إيجابية تكسب صاحبها احترام وإعجاب من حوله .

الموسيقى تغذي المخ البشري ، وينعكس ذلك على الجوانب الحسية والعقلية والوجدانية والاجتماعية .

من هذه المقدمة وفي إطارها ننتقل إلى تقديم مقالات العدد التي لا تقتصر على الموسيقى، وإنما تتناول أوجه الفن المختلفة ، ونعود لنذكر القارئ بأن اقتصارنا فيما قدمناه على الموسيقى يرجع إلى قيود المساحة ، وأن ما كتب عن الموسيقى كتب عن مجالات الفن المختلفة .

من هذا الإطار العام نقدم مقالات الملف السبع ، ونبدأ بمقال أ.د. عبلة حنفي : "ماذا تعني فنون الأطفال لنا وللطفل" ، حيث عرضت لأنواع الفنون المختلفة ، وكيف تنمي جوانب الشخصية الحسية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، بل وتناولت دور الفن في تشجيع وعلاج اضطرابات الشخصية ، وهو مجال له متخصصوه وله أدواته وفنياته. وتشترك مقالة أ. آيات ريان «الموسيقى وإحياء عالم الطفل» مع المقالة السابقة في نقاط كثيرة ، ولكنها تختص بمدخلها التاريخي؛ لتصحبنا في رحلة في تاريخ الفن منذ أرسطو وحتى يومنا هذا. وتركز على الموسيقى كغذاء للعقل والروح ، وتقدم للقارئ نماذج من الموسيقى التي بينت البحوث العلمية قيمتها وتأثيرها في النمو المتكامل للطفل. ويتكامل مقال أ. نوال محمد عباس «أدب الخيال العلمي عند الأطفال" مع المقال السابق؛ ليقدم لنا تاريخ الخيال العلمي عند العرب. ويؤكد المقال أن الخيال هو روح العلم وروح الفن في الوقت نفسه ، وأن العلم قفزات في الخيال ، وأن الفن هو غذاء الخيال. ويدعونا المقال لتأمل تلك العلاقة بين الخيال والفن والعلم ، الأصل في الاختراعات الكبرى، الخيال ، الذي يغذيه الفن، ويحوله العلم إلى واقع .

ينقلنا مقال د. أميمة جادو «فنون الطفل الغنائية وانعكاساته التربوية" إلى جذور الخيال والفن والعلم ، حيث تقدم لنا وجهاً جميلاً للعلاقة بين الأم والطفل من خلال أغاني المهد ، التي تصل إلى قلب الصغير وعقله، فتفجر فيه الطاقات الكامنة ، وتحيطه بالجمال الذي يستشعره في دفء الأم ودفء الحياة من حوله ، أغاني المهد وجه من أوجه الفولكلور الذي يتجاوز كل الحدود المصطنعة؛ ليعبر عن الإنسان في كل زمان وكل مكان .

يكمل مقال أ.د كمال حسين ما بدأ به المقال السابق حين يقدم لنا حواراً جميلاً آخر بين الأم والطفل في مقاله «فن الحكي .. فن رواية القصة» . وفن الحكي فن له متخصصون وله أصول علمية وأقسام ودرجات علمية. من هذا التراث يستخلص المقال أهم تلك الملامح العلمية ليقدمها للقارئ ، هادياً له في تقرير أهمية القصة وأهمية الحكي وما تتركه في الطفل من آثار نفسية وتعليمية .

أما مقال د. ناجي شنودة نخلة «نحو فهم أفضل لرسوم الأطفال وتنميتها" فيلخص لنا في يسر ووضوح كيف تنمو خصائص الرسم لدى الطفل بنموه من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى ، وكيف تعبر كل مرحلة عن نمو الطفل ، باعتبار النمو الفني مؤشراً للنمو الحسي والحركي والعقلي والانفعالي والاجتماعي. وقد يذكر القارئ ما أشارت إليه أ.د عبلة حنفي في مقالها "ماذا تعني فنون الأطفال لنا وللطفل" أن الفن أداة لتشخيص وعلاج اضطرابات الشخصية .

ويتواصل مقال أ.د. ليلى كرم الدين "اعتبارات في فنون الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة" مع قيمة الفن في التشخيص والعلاج، ولنا وقفة عند هذا المقال، فهو يعكس فلسفة "خطوة" في العناية بالطفل العربي .. فكل طفل عربي ثروة وقيمة في ذاته ، ويحضرني قبل أن أقدم للمقال كتاباً قرأته عن ذوي الاحتياجات الخاصة ، دعاني عنوانه ليس فقط لأقرأه بل لأدرسه، وكان عنوانه "لا تقبلني" ويعني لا تقبلني في قصوري وعجزي ، ولكن ابذل ما تستطيع من جهد ووقت كي تغيرني . وتتبنى خطوة هذه الفلسفة، ويعبر المقال عنها؛ حيث يقدم لنا الفن في حياة الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة من محورين: الأول يقوم الطفل بالعمل الفني ، فيعبر عن نفسه ، ويشعر بالاقتدار ، والثاني يوظف المتخصصون الفن ليساعدوه على تحقيق النمو.

يعود بنا هذا المقال إلى ما بدأناه ، وما دعمته جميع مقالات الملف .

إن الفن ينمي المخ البشري، وينعكس هذا النمو في كل ما يحققه الطفل من إنجازات .

كلمة أخيرة . تنتشر حول العالم ٨٠٠ مدرسة ، تقدم الفن قبل القراءة ، تقدم الفن في سن الروضة، وتؤخر القراءة إلى ما بعد السابعة ، وكثيراً ما تبدأ في التاسعة .

وماذا كانت النتيجة .. يتفوق خريجو هذه المدارس على أقرانهم بصورة تكاد تكون مطلقة ، ليس في الفن فقط، وإنما في جميع مجالات العلم .

دعوة لمن يحمل أمانة الطفولة أن يتأمل العلاقة بين الفن والطفولة، على أن يكون فناً حقيقياً رفيعاً .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com